

## كلنا نشرب من نبع واحد

### بقلم الصحفي ادمون صعب

#### عن جريدة النهار

"اعتذر الرئيس الاندونيسي عبدالرحمن وحيد عن أخطاء ارتكبت في السنة الأولى من حكمه. وقال أمام مجلس الشعب الاستشاري: "اعتذر لكل الشعب الاندونيسي اذا كانت الحكومة اخفقت خلال الأشهر الماضية في حل كل المشكلات. ولكني اناشدكم وضع ثقكم فينا وسواصل المحاولة والعمل الجاد. ونبذل قصارى جهدنا (...). لقد تعلمنا كثيراً من نقاط الضعف (...). وسنترك معالجة الشؤون الداخلية لفريق مؤهل. وسنتبع سياسة اقتصادية سليمة ولننترم مبادئ حكيمة تواكب الانتعاش الاقتصادي النشط لضمان استعادة الاستقرار الشامل في الاقتصاد".

(الوكالات الثلاثاء ٨/٨/٢٠٠٠).

انا مواطن عادي. فلاح ابن فلاح. قد أكون من عكار، أو من البقاع او من أقاصي الجنوب. أحاول منذ مدة ان أفهم ما يجري في الشوارع والسراريات والغرف السوداء المظلمة، هنا وهناك، حيث يلتقي المنظرون والمبرمجون فيعدون لكل مسؤول عدته.

ثمة أمور أفهمها، بينما أمور أخرى تعصو على الفهم لدي.

في الموضوع الانتخابي مثلاً لم أجد صعوبة كبيرة في فهم التدمير الكبير الذي تتعرض له الديمقراطية اللبنانية على أيدي السوريين وحلفائهم، وخدامهم أحياناً من اللبنانيين "الأوفياء" الذين قتلوا وطنهم وحلوه جثة، ويدعون المرشحين الى وضع كراسيهم فوقها، وقد رفض النائب نجاح واكيم - مع انه من أهل البيت - الجلوس بكرسيه فوق هذه الجثة، فحمل كرسيه ومشى...

كذلك لم أجد صعوبة في فهم الأسباب التي تحول دون ترك الديمقراطية اللبنانية وشأنها. ذلك بأن ترك هذه الديمقراطية وشأنها يعني، في الدرجة الأولى، اعتماد الدوائر المصغرة التي تنتخب بين نائبي ونائبين، فيأتي الانتخاب معبراً حقاً عن ارادة الناخبين الذين يختارون المرشح الذي يعرفونه، أو خبروه ففروا انتدابه مثلاً لهم في البرلمان، مانحينه مهلة ٤ سنوات ليظهر كفايته، وإلا إسُتبعد في الدورة المقبلة، مهما علا شأنه وانتفخت جيبيته.

ولكن لو سألنا أنفسنا: هل القابض على القرار اللبناني، وعلى عنق المجلس، يسمح بأن يأتي الى المجلس احرار يقولون "لا" بشجاعة ساعة يجب، ولا يضيرهم قول "نعم" حيث الضمير يكون مرتاحاً.

ولأن وظيفة المجلس ليست تمثيل الشعب، ولا محاسبة الحكام ومنع اهدار الأموال وتحقيق الشفافية، لذلك تم اللجوء الى نظام "البوسطات" حيث الأماكن فيها مرقمة ومحجوزة ومسعرة سلفاً. اذ لا يجوز، بعد تقسيم الدوائر وتقطيعها وتشتيت الناخبين، الا تُسعر المقاعد، كما تُسعر الرؤوس التي ستحضر من منازلها الى صناديق الاقتراع مثل شواتل التبن. فهذه "الجماهير" التي بالكاد سمعت بركاب البوسطة لا شيء يغيرها بالاقبال على الصناديق، سوى الصناديق الأخرى والمغلفات. فلا شيء يحرك الركود الاقتصادي سوى الانفلاش الانتخابي. والذنب في تدفق المال السياسي الذي يهاجمه الرئيس سليم الحص، ليس ذنب الرئيس رفيق الحريري الذي يتهمه الحص بمحاولة اغتياله سياسياً من طريق المال. بل الذنب كل الذنب يقع على الحكومة بكل اركانها واعوانها. الحكومة التي تبنت قانون الانتخاب الذي صيغ في مكان ما بين دمشق وبيروت، وقضت استراتيجيا التلازم في كل شيء بأن تكون العملية شبيهة بمحطة تسفير يصعد الى بوسطاتها حملة القسائم دون سواهم، مما يقلل عدد الضحايا التي تسببت فيها المحادل في انتخابات ١٩٩٦. لذلك بقي شعار المرشح سر كيس الياس سر كيس في المتن الشمالي "مواطن في خدمة مواطن"، بدون معنى لان شعار المعركة الكبرى "وطن بامه وابيه مسلوب الارادة والقرار، في خدمة دولة غريبة مهيمنة على الارادة والقرار".

ولا عجب اذا حمل نجاح واكيم كرسيه ومضى عائداً بها الى منزله، بل العجب الا يوجد من يرفض ركوب البوسطة ممن حجزت لهم مقاعد واعطوا بونات، لان يوماً سيأتي يرحمون فيه بالحجار والبيض والبنذورة الفاسدة هم وازلامهم.

واننا لننحدر من ديموقراطية هي حكم الشعب بواسطة الشعب ومن اجل الشعب، الى "ديموقراطية" لحكم الشعب بدون الشعب، و"جميلته".

الا ان الشعب الذي دحر المحتل لن يستسلم للخنوع. ومنه النائب وليد جنبلاط الذي يعود الى منبع القوة الشعبية، الى الوحدة الوطنية والعيش المشترك، وهو اختبر هول افتقاد هذا العيش منذ قاد حملة التهجير في الجبل. واكتشف - والانتخابات كانت افضل سبيل - ان شهداء الجبل سقطوا من الطرفين من اجل لبنان، ولكن كل واحد من اجل فكرة عن لبنان، الا انهم جميعاً "شهداء الجبل"، وخصوصاً انهم كانوا معاً وقوداً لـ"حروب آخرين" على ارضهم.

كذلك وعى جنبلاط ان لا طائفة ولا جماعة تستطيع ان تتفرد بمنطقة او بحيز جغرافي. وادرك ان الدروز انزلوا في السنوات الماضية في الجبل، فكادوا ان يختنقوا سياسياً واقتصادياً، وسهل استنفرادهم اخيراً بعدما كانت قوتهم في التضامن والعيش المشترك مع المسيحيين. وقد جدد جنبلاط الدعوة الى المسيحيين للرجوع الى الجبل مع احزابهم وشيعهم وتعددتهم، مما يحول دون "التهام" الدروز سياسياً، ولطالما قيل ان

الفريق المسلم حافظ على كيانه حيال سوريا بفضل الممانعة المسيحية في الهيمنة السورية على لبنان، وعندما انهارت الممانعة المسيحية، فقد الجميع استقلالهم وقرارهم الحر.

وجنبلاط يصلح لأن يكون قدوة في الرفض، ويمكن التأسيس على قوله ان حرية القرار واستقلاله لا يتعارضان مع المصالح الاقليمية. وزيارته الشيخ امين الجميل أمس تصب في هذا الاتجاه: استرجاع القرار وصون الكرامة.

وعلى خط آخر، انا المواطن العادي أحاول ان أفهم ما يجري في الجنوب.

فأنا لم أصدق ان الحكم يستطيع تجاهل ارادة الشعب من طريق التنظير والاختباء وراء الاوهام.

وأول ما عصي على الفهم لدي ان يذهب الجندي اللبناني الذي تربى على حب الوطن والاستعداد للتضحية من أجله، ان يذهب الى الجنوب ويمنع عليه الاقتراب من حدود وطنه مع العدو الاسرائيلي، كأن السراب هناك لن يعود لبنانياً الا بتحرر الجولان. وهذا ما لم أفهمه ايضاً، كما لم أفهم العلاقة بين تحرير الجنوب وتحرير الجولان، وخصوصاً ان سوريا لم تطلب يوماً من لبنان ان يُحرر لها الجولان، فلها شعبها وجيشها ويصعب عليها ان تضعهما في موضع العاجز أو المتخاذل.

كذلك لم أفهم كيف ان العسكري اللبناني الذي انتصر على العسكري الاسرائيلي في اكثر من معركة داخل فلسطين وانتظر هذا اليوم ليستعيد الأرض السليب من المحتل، سيحال بينه وبينها لاعتبارات تنظيرية لا تمت الى المصلحة اللبنانية بصلة.

ولم أفهم أيضاً كيف سيصبح العسكري اللبناني شرطياً في الاحياء "يطارد" للصمص ويمنع الاعتداءات على الاشخاص والاموال، في حين تركت الحدود سائبة وتتنذر باخطار قد تكون مدمرة.

ومن غير المفهوم أيضاً لماذا طعمت قوة قوى الأمن بـ ٥٠٠ عنصر من الجيش اذا كان هؤلاء سيفقدون صفتهم ودورهم وواجبهم بمجرد دخولهم أرض الجنوب، وكان يمكن الاستغناء عنهم.

وطلباً للفهم كذلك من مواطن عادي فلاح، اسأل: هل عدد الشهداء الذين سقطوا في الجنوب وأدوا الى دحر واحد من أقوى الجيوش في المنطقة، يبرر للأمين العام لـ"حزب الله" تصنيف اللبنانيين أبناء وطنهم شياطين وملائكة، خونة ووطنيين. فينعت بالخيانة كل من يطالب بجيش وطنه رمز عزته وكرامته، الى الجنوب. ويقول عن هؤلاء انهم "يشربون من نبع واحد ومن ماء واحد هو نبع السفارة الاميركية وسفيرها ديفيد ساترفيلد في بيروت". ويضيف ان "هؤلاء لم يكن يعنيه كل الأرض التي استعادها لبنان في الاشهر الماضية (...). ولم يكن يعنيه في يوم من الأيام ان الجنوب او البقاع الغربي تحت الاحتلال". ان هذا الكلام الذي قاله نصرالله في مشغرة الأحد الماضي هل يعبر عن روح المقاومة وقداسة الشهداء، أم هي

نشوة الانتصار وحرارة الانتخابات تفرزان أفكاراً تسيء الى المقاومة والشهداء أكثر مما تخدم مرشحي البوسطات الذين يصعدهم نصرالله الى مقاعدهم الواحد تلو الآخر.

وحبذا لو كان نصرالله وحزبه منفتحين أكثر على الذين رماهم هو بسهامه وسقاهم من سم الشيطان الاميركي الذي لا يهجس بسواه، متناسياً وهو الذي يشهد استسلام الحكم للمشيئتين السورية والايرائية، ان ابناء شعبه شرفاء، مثل شهداء حزبه وأكثر، وان عداؤهم لاسرائيل اسبق من وعي "حزب الله" لهذا الأمر، وأقدم. وهم ليسوا في حاجة الى شهادات في الوطنية من أحد. كما انهم لم يتخلوا عن المطالبة بالجيش اللبناني، دون سواه، مجسداً للسيادة في الجنوب، ومحافظاً على التراب الوطني. وقد استشهد منهم قرابة ١٣٣ الفاً بين العام ١٩٧٦ و ١٩٩١ من أجل ان يستمر لبنان ويبقى حراً سيداً مستقلاً، في قراره كما في كيانه. والشعب الذي يقدم كل هذه القرابين على مذبح الوطن لا يستحق من السيد نصرالله هذه "الالتفافة" التي تذكرنا بالأدبيات "الثورية" الشيطانية، أكثر مما تذكرنا بالقيم والشمائل العربية.

وفي وسع نصرالله ان يزيد من شاء على الـ ١٣٣ الفاً لينتعش بهم تراب الوطن الحاشد بالشرفاء الذين يشربون من بئر واحدة، هي البئر نفسها التي شرب منها نصرالله وألقى بها حجراً. نريد من يفهمنا لماذا لا يريد حكام لبنان القبول بالقرار ٤٢٥ الذي بحّ صوتنا من المطالبة بتطبيقه. ولماذا لا يريد هؤلاء اقفال الحدود واعادة الناس الى حياتهم الطبيعية، وتسهيل ورود المساعدات الدولية لاعادة اعمار المناطق المتضررة.

وهل نحن نُحكَم من سلطات مسؤولة أم من مجلس قيادة ثورة؟

في انتظار الجواب، تفضلوا بقبول فائق احترامنا وتقديرنا.

ادمون صعب

---